

وغمستُ في ماء القناعة خبز أيامي الكفاف  
حزن تمدد في المدينة  
كالأفعوانِ بلا فحيح

حزن طويل ضرير لا نهاية له، من الجحيم إلى الجحيم، حزن مقيم لا يبرح ولا يريم، يفترش الطريق، فأين المفر؟. ويتمنى صلاح أن لا يفارقه الظلام؛ فرماح النور تشقيه ولا منقذ ولا مغيث. ويفتح ديوانه الثاني: «أقول لكم». بمنظومة عن الحزن المكنون في النفس، وتهى الدموع، ويموت فلاح والتراب ملء يده، والفأس بجانبه. وتخط الأقدار للشاعر الغربة وأعواماً في التيه. ويداعبه أمل، ويحلم بيوم الثأر من التتار، ويصرخ لوهران، ويترنم بالحب ويشدو به، وسرعان ما يكظمه، ويتراءى له مراراً طائف الموت، وكل شيء يموت. ويناضل الفارس القديم في الديوان الثالث وقلبه حزين؛ فكل ما حوله يبعث فيه البكاء. وهو يعود إلى مدينته؛ يعود شريداً على أبوابها لا مأوى ولا ملجأ، ويغوص في عيني صاحبتة السوداوين، وهما «عينان كسردابين»، كما يقول، عينان عميقتان موتاً، غريقتان صمتاً. وإن الصمت ليخيم من حوله على كل شيء، حتى على جنادب الحقول. ومن حين إلى حين نحس بنور خافت ضئيل يهبط إليه من أحد أركان السماء:

كان بلا زادٍ يسيرُ  
في المهمة المهجور  
وفجأةٍ لاحت له بشارة بيضاء  
راية من نور  
أواحة من نور

وخير قصائد الديوان قصيدته البديعة التي اختارها عنواناً له: «أحلام الفارس القديم». ونحس في مقاطعها الأولى بفرحة المحب العاشق، فرحة ما بعدها فرحة؛ إذ يتمنى لو كان مع صاحبتة كفضني شجرة وهو يرسم حياتها الهنيئة حينئذ في الربيع والخريف والشتاء، بل لو كانا موجتين تتراقضان على